

الرحلة الحجية للشيخ الطيب المهاجي الجزائري في عام 1932م من خلال كتابه:

"أنفس الذخائر وأطيب المآثر"

The authentic journey of the Algerian Sheikh Tayeb al-Mahaji in 1932 through his book: «Anfous El Dakhair Wa Ataib El Maathir»

فاطمة بلهوارى

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية قسم التاريخ جامعة السلطان قابوس سلطنة عُمان

fbelhouari10@gmail.com

تاريخ النشر: 2020/08/13

تاريخ القبول: 2020/05/17

تاريخ الاستلام: 2019/11/30

ملخص: يتناول موضوع هذه الدراسة جوانب من الرحلة الحجية للشيخ الطيب المهاجي الجزائري والموسومة بـ: "أنفس الذخائر وأطيب المآثر"، وهذه الرحلة كانت بحرية حيث جاب فيها هذا الشيخ الجليل السواحل الجنوبية والشرقية للبحر الأبيض المتوسط، وصولاً إلى ميناء جدة. وقد اهتم بتدوين رحلته، فوصف تفاصيلها منذ أن حصل على رخصة السفر من الحكومة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر آنذاك إلى ركوبه المركب المخصص لنقل الحجاج والقادم من ميناء دار البيضاء بالمغرب إلى وهران، فالجزائر، فعنابة وصولاً إلى ميناء جدة. ويتلخص هدف هذه الدراسة في رصد القيمة المعرفية للرحلة، لما احتوته من معلومات تاريخية هامة تعكس طبيعة ظروف رحلة الحج وأداء الفريضة في زمن الاستعمار الفرنسي على الجزائر، إلى جانب عرض مفصل للتواصل الديني والثقافي، الذي جمع علماء المشرق بالمغرب في أرض الحجاز عبر المسلك البحري المتوسطي.

الكلمات المفتاحية: المهاجي؛ الرحلة؛ الحج؛ الاستعمار؛ التواصل.

Abstract:

This study aims to present aspects of Algerian Sheikh Tayeb Al-Mahaji's pilgrimage journey through the details of his book, marked "O", during a cruise that crossed the southern and eastern shores of the Mediterranean, to the port of Jeddah. He was interested in writing his journey, describing the details of the time when he was allowed to travel by the French colonial government to Algeria until he embarked the pilgrims' ship from the port of Casablanca, Morocco, Oran, Algeria, and Annaba to Jeddah. This study revealed historical information about the nature of religious and cultural communication that brought Muslims together in the Holy Places

Keywords: EL Mhadji; Trip; Hajj; colonial; communication.

فاطمة بلهوارى، fbelhouari10@gmail.com

1. مقدمة

لقد كشفت كتب الرحلة الحجة، أن ركب الحاج الجزائري كان يضم أعداداً وافرة من العلماء والطلبة الذين يرغبون في تحقيق مقصدين شريفين هما: الحج وطلب العلم، حيث تداخل هذان المقصدان إلى حد الاندماج بين ثنائية القدسي والعلمي، فمكة المكرمة تمثل الفضاء القدسي لاحتضانها الكعبة المشرفة، وفي الذات نفسه الموضع الذي منه بث أول نداء للعلم والمعرفة. وبالتالي لا غرابة أن يتطلع العلماء وطلاب المعرفة من أهل الجزائر للرحلة إليها، فكانوا يمكنون بها ردحا من الزمن قبل أوبتهم إلى بلدهم فيما كان آخرون يفضلون البقاء فيها إلى حين إقبارهم بها، مما أسفرت هذه الظاهرة عن ازدواج المنافع من هذه الزيارة المباركة لعلماء الجزائر. والشيخ الطيب المهاجي يعتبر أنموذجا في تجسيد ظروف الحج خلال منتصف القرن العشرين، حيث كانت الجزائر تحت نير الاستعمار الفرنسي، فجاء كتابه: "أنفس الذخائر وأطيب المآثر" صور في رصد الحقائق تاريخية.

2. التعريف بالشيخ الطيب المهاجي الجزائري

هو الطيب بن المولود بن مصطفى بن الفريخ ولد سنة 1300هـ/1881م بالكعدة من قبيلة أولاد علي إحدى قبائل بني عامر بن زغبة، كانوا قد انتجعوا من جزيرة العرب أوائل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب¹، وتوفي بتاريخ 17/10/1967م عن عمر ناهز 88 سنة.

2.1 تعليمه

تلقى الشيخ الطيب المهاجي المبادئ الأولى في التربية الإسلامية على يد والده، حيث لقنه في سن مبكرة ألفاظ الشهادة مع الشرح البسيط. كما ختم القرآن وعمره تسع سنوات، لينتقل بعد ذلك إلى حلقات الدرس على يد الشيوخ، الذين أتى على ذكرهم ضمن كتابه "أنفس الذخائر وأطيب المآثر" في أهم ما اتفق لي في الماضي والحاضر"، وقد ختم على مسامعهم القرآن الكريم لمرات عديدة وهم: -محمد بن قدور بن الأقرع والشيخ محمد بن عبد الله اللعباي والشيخ محمد المولود بن إبراهيم والشيخ عبد السلام بن صالح الغريسي (ت1320هـ/1902م)².

وبعد أن ختم القرآن على الشيخ عبد السلام بن صالح الغريسي³، تلقى العلوم النقلية على يد علماء ناحيته وهم: الشيخ محمد بن فريخ أخذ عنه مختصر الشيخ خليل. وحصل عن الشيخ محمد بن العربي الشرفي باب الموارد من مختصر خليل. بينما تلقى على الشيخ محمد الكندوز التنسي⁴ معظم مختصر خليل والأجرومية مرات، وقطر الندى لابن هشام، وألفية بن مالك، ولامية الأفعال في الصرف والسمرقندية في البيان، ومتن أساغوج في المنطق⁵.

والملاحظ أن المعلومات جد شحيحة للحصول على تفاصيل حول طرق التحصيل العلمي وأساليبه خلال هذه الحقبة الزمنية، غير أن قائمة الشيوخ والعلوم التي تلقاها الشيخ طيب المهاجي في تعليمه، تعكس طبيعة التعليم في بلدان العالم الإسلامي في ذلك الوقت، حيث كان التركيز على العلوم النقلية من علوم القرآن والحديث الشريف واللغة وآدابها. وغالبا ما يتوج طالب هذه العلوم على ترخيص، أو كما كان يعرف بالإجازة العلمية، وقد نال الشيخ الطيب المهاجي عند نهاية تلقيه لتلك العلوم عدة إجازات من داخل وطنه وخارجه. وقد قيد ذكر أسماء شيوخه ضمن كتابه السالف الذكر، وهم كالتالي: الشيخ عبد السلام بن صالح الغريسي (ت 1320هـ/ 1902م)، الشيخ أبو شعيب الدكالي (ت 1356هـ/ 1937م)، الشيخ عبد الحي الكتاني الفاسي (ت 1348هـ/ 1929م)، الشيخ أبو العباس أحمد البلغيثي العلوي الفاسي (ت 1348هـ/ 1930م)، الشيخ بن الحسين الشعبي التنسي (ت 1340هـ/ 1922م)، الشيخ القاضي سيدي أحمد بن الحسن المختاري المعسكري (ت 1344هـ/ 1925م)، الشيخ سيدي أحمد الشريف السنوسي الخطابي (ت 1351هـ/ 1933م)، الشيخ محمد بدر الدين، محدث الشام بدار الحديث النبوي الشريف بدمشق، الشيخ خليل التكروري، الشيخ أحمد الأمين بن عزوز⁶.

ويلاحظ أن تلك الإجازات تباينت ما بين المکتوب والشفوي، والمنظوم والمنثور. كما تم الجمع بين إجازتين وهو واضح ضمن نص إجازة لشيخ شعيب الجليلي، حيث وضعت إلى هامشها إجازة الشيخ محمد الكندوز. هذا إلى جانب أن الشيخ الطيب المهاجي ترجم لبعض موجزيه كترجمته للشيخ أحمد بن حسن المختاري المعسكري، والشيخ أحمد البلغيثي الفاسي، والشيخ عبد الحي الكتاني وغيرهم ... إلى جانب الحصول عليها دون الجلوس المباشر إلى الشيوخ، مما يفسر مرحلة التدهور والضعف التي وصلت إليها الإجازات في هذه المرحلة التاريخية من القرن العشرين.

2. 2. رحلته

إن الرحلة في حياة الرجل العالم أمر ضروري وأساسي، فرحلة العالم مملوءة بالعبير والدروس والفوائد، إذ كان يرغب في تحقيق مقاصد شريفة من بينها طلب العلم، أو الاستزادة منه، والحصول على الإجازات من كبار الشيوخ، وسماع الروايات وحفظ الأسانيد، إضافة إلى الاطلاع على الجديد في حركة التأليف، ككتب التفسير والقراءات والحديث والفقه والأدب والتاريخ. ويبدو أن الشيخ الطيب المهاجي لم يشد عن أثرابه في طلب الرحلة العلمية بغرض لقاء الشيوخ، إذ اعتبرت عصرئذ هي مزيد وكمال في التعليم، كما نوه إلى ذلك العلامة ابن خلدون في قوله: "أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعلما وإلقاءً، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد

استحكما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها⁷. وقد ألح هذا العلامة على أن الرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرجال. فكانت القناعة في حينها، لا للاستغناء عن الرحلة، فهي تدفع إلى الاطلاع على ثقافة الآخر، ونهل العلوم من مصادر متنوعة لغرض توسيع الآفاق ودوام الاتصال مع مراكز العلم والاستفادة من كل جديد في بحر العلوم. فعدت الرحلة تقليدا عند الطلبة الجزائريين بغرض التحصيل الجيد مع جودة الفهم لعلوم بلادهم قبل أن يتوجهوا إلى المشرق.

والظاهر أن الشيخ الطيب المهاجي كان يدرك هذه الغاية إدراك العالم المتبحر في العلوم والمعارف، ويعتبر من العلماء الجزائريين القلائل الذين تركوا مذكرات حول رحلاتهم، وقد ذكر تلك الرحلات في كتابه "الأنفس". وكانت تلك الزيارات ما بين بلدان مغربية كتزوله إلى تونس والمغرب وبلاد الحجاز.

أ- إلى تونس

كانت رحلته إلى تونس في سنة 1348هـ/1929م، حيث أقام بها أياما زار خلالها جامع الزيتونة والتقى بالشيخ بريم وبقاضي المالكية الشيخ الصادق النيفر، هذا الأخير الذي دارت بينهما نقاشات هامة، وقد أدرك الشيخ في هذا البلد وقار ومهابة واحترام وتمثيل للقضاء الشرعي تمثيلا قارنه بمجلس الإمام سحنون والقاضي عياض وأمثالهما من رجال القضاء في سالف القرون⁸. وأثناء إقامته بتونس كان يتردد على مجالس العلم ولتلقى الدروس بجامع الزيتونة، فحضر مرة درسا - خلف الحلقة - في النحو من ألفية ابن مالك، وآخر في أصول الفقه، وقد شارك خلال ذلك بإرشاداته وتوجيهاته القيمة.

ب- إلى المغرب

كانت هذه الرحلة في سنة (1364هـ/1945م) بدعوة من بعض أصدقائه بحاضرة فاس، ولما كانت هذه الرحلة مصادفة العطلة الصيفية لم يتأت للشيخ الطيب المهاجي حضور دروس كلية القرويين بهذه المدينة.

ج- إلى الحرمين الشريفين - مكة المكرمة والمدينة المنورة -

دأب علماء الجزائر على شد الرحال إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج منذ أن من الله عليهم بنعمة الإسلام في قوله تعالى: "ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا..."⁹ ومنه قوله: "وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات..."¹⁰.

ولعل الرحلة الحجّية من هذا المنطلق تمثل امتدادا للشوق العارم والعاطفة الدينية الملتهبة، فلا يشفي غليل المسلم إلا أن يظل مستحضرا جلال المكان وقديسيته. وقد كشفت كتب الرحلة الحجّية، أن ركب الحاج الجزائري كان يضم أعداداً وافرة من العلماء والطلبة الذين يرغبون في تحقيق مقصدين شريفيين هما: الحج وطلب العلم، حيث تداخل هذان المقصدان إلى حد الاندماج بين ثنائية القدسي والعلمي، فمكة المكرمة تمثل الفضاء القدسي لاحتضانها الكعبة المشرفة، وفي الذات نفسه الموضع الذي منه بث أول نداء للعلم والمعرفة¹¹. سنلقي نظرة موجزة عن فريضة الحج وأهميتها عند المغاربة عامة والجزائريين بصفة خاصة. ولعل من أهم بواعث الرحلة وأعظمها شأنًا عند المسلمين تأدية فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، وزيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، فالحج عبادة ذات فضاء فسيح جمعت المقاصد الدنيوية والدنيوية، إذ ارتبطت من بدايات ظهوره ارتباطاً وثيقاً بالثقافة والتعليم، من أجل اللقاء والتواصل العلمي بين ثقافات وحضارات مختلف الشعوب والأعراق. كما يعتبر مناسبة دينية ومجالاً خصبا لتوثيق أواصر الأخوة، وتحقيق الوحدة والاجتماع بين أبناء الأمة الإسلامية. وهذا، وتعكس ثقافة الحج فكر خلاّق وتربوي، برزت تجلياته فيما يورد عنه من أحكام فقهية تتعلق بأداء المناسك وشروط السفر وآدابه والعلاقات مع الآخرين، وهذا بغرض العبادة والسعي إلى التقرب من الله زلفى ونيل خيريه وهديه ومغفرته¹².

اهتم الحاج المغاربة كغيرهم من المسلمين بهذه الفريضة فعظموا هذه البقاع وعبروا عن الشوق المتجدد لها فيما دونوه من مواقف وأحداث عند تأدية الفريضة. وهذا النوع من التأليف عرف بالرحلة الحجازية أو الحجية¹³، وقد تضمنت أوصاف الطرق والمسالك والدروب، التي مروا بها والأحداث التي صادفوها، حتى أصبحت كتبهم دليلاً ومرشداً لمن ينوي السفر. وقد تميزت هذه المؤلفات بالاقتضاب والإسهاب، وبالمشور والمنظوم، وبين الفصيح والعامي¹⁴. ولعل الرحلة الحجّية من هذا المنطلق تمثل امتدادا للشوق العارم والعاطفة الدينية الملتهبة، فلا يشفي غليل المسلم إلا أن يظل مستحضرا جلال المكان وقديسيته، بل كانوا يفاخرون غيرهم بلقب: (الحاج)، ويضيفونه إلى نعوتهم الشخصية، وذلك لأن المسافة بينهم وبين مكة لم تكن مسافة قصيرة ولا سهلة ولا آمنة، وكثيرا ما أفاضت كتب الرحالة والمؤرخين في الحديث عن المتاعب، التي واجهت قوافل الحاج إلى بيت الله الحرام، ولهذه الأسباب جميعا ازدادت قدسية تلبية هذا الركن المبارك في نفوسهم، متحدين في ذلك كل الصعاب والشدائد.

ولم يمنع الجزائريين مانع من تلبية هذا الركن على الرغم من المشقة القاسية التي كانوا يكابدونها في مسالكهم، والخفوفة بأخطار الظواهر الطبيعية والبشرية، بل حتى في الظروف التاريخية التي وقعوا فيها تحت نير الاستعمار الفرنسي، حيث تم إصدار مرسوم من طرف الإدارة الاستعمارية الفرنسية عن أداء فريضة الحج للحجاج الجزائريين، فبدت إجراءاتها بين المنع والتقييد ضمن شروط تعجيز، وذلك من سنة 1888 حتى

1895م، تحسبا منها باستغلال تجمعهم في البقاع المقدسة في الدعاية والنهوض ضدها، غير أن ذلك لم يمنع الجزائريين من تجاوز هذه المحنة والتصدي لها والرحلة دون إذن رسمي من السلطات الفرنسية¹⁵، بل وجدناهم يشاركون أبناء الأمة الإسلامية في الموعد المحدد.

وقد أفصحت العديد من الرحلات الحجازية المغربية عن الطرق والمسالك التي استخدمها الحجاج الجزائريون عبر مواكبهم¹⁶، وهذه الطرق ازدادت شهرتها في العصور الوسطى لتتطور أكثر في العصور الحديثة مواكبة التحولات التي شهدتها منطقة دول البحر المتوسط إقليمي ودوليا، إذ أنهم استخدموا طرقا ومسالكها البرية والبحرية على حد السواء. ويبدو أن عملية اختيار الطريق لم تكن عشوائية، وإنما تخضع لشروط أساسية كتوفر الماء والأقل خطرا. وقد لعبت تلك الطرق دورا حيويا عبر التاريخ الإسلامي في تحقيق التواصل الحضاري، والثقافي وفي تقوية أواصر العلاقات السياسية والاقتصادية بين بلدانه.

وبالتالي لا غرابة أن يتطلع العلماء وطلاب المعرفة من أهل الجزائر للرحلة إليها، فكانوا يمكنون بها ردحا من الزمن قبل أوبتهم إلى بلدهم، فيما كان آخرون يفضلون البقاء فيها إلى حين إقبارهم بها، مما أسفرت هذه الظاهرة عن ازدواج المنافع من هذه الزيارة المباركة لعلماء الجزائر.

والشيخ الطيب المهاجي كغيره من أبناء هذه الأمة الإسلامية، الذين دأبوا على شد الرحال إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، وزيارة الحرمين الشريفين؛ إذ كانت رحلته الأولى¹⁷ إلى الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج سنة 1350هـ/1932م، وهي موضوع هذه الدراسة فسنأتي إلى التفصيل عنها لاحقا.

2. دوره في الحركة الوطنية الجزائرية

لقد أسهم الشيخ الطيب المهاجي كغيره من الجزائريين المخلصين، في مواجهة الاستعمار الفرنسي، وكانت البداية منذ تصديه للتعليم والتدريس بعد تأهله لذلك في بداية القرن العشرين، رغم تعنت الاستعمار. ومع بداية الحركة الوطنية شارك الشيخ الطيب المهاجي في تأسيس "جمعية العلماء المسلمين"، فكان من أعضائها الدائمين، بل يعتبر أحد أعلام الحركة الإصلاحية والوطنية. هذا وقد مثل دور المفتي الرسمي لمجاهدي مدينة وهران بالغرب الجزائري، إذ كان يساهم بفكره وعلمه في الدعم المعنوي لنصرة قضية وطنه العادلة.

2. 4 آثاره العلمية

أ- توليه مهنة التدريس

بعد أن تمكن الشيخ الطيب المهاجي من العلوم والمعارف، وتحصل على إجازات من قبل علماء عصره، قام بمهمة التعليم والتدريس في مدينة وهران بالقطر الجزائري بداية من سنة 1907م، من خلال تدريس اللغة وآدابها من نحو وصرف وبيان وفقه، مسهما بذلك في نشر العلم والثقافة العربية الإسلامية متحديا سياسة التجهيل، التي مارستها سلطات الاحتلال الفرنسي على الشعب الجزائري. وكان الشيخ عالما بصيرا بأحوال زمانه حريصا على نجاح مدرسته وعلى التحصيل العلمي لطلبته. فقد أفاد مدرسته مما استفاد من شيوخه، وهذا الحرص تخرج على يديه رجال كانوا دعاة خير ورسل إصلاح كالشيخ سي حلول أبو ناب الفليتي، وهو الذي ناب عن الشيخ مهام المدرسة عند أداء هذا الأخير فريضة الحج سنة 1932م. وقد توفي قبل قيام الثورة التحريرية، إلى جانب ثلة من العلماء كالشيخ مصطفى بن زيان والشيخ النابلسي بن زيان والشيخ عبيد القادر بوجلال، والذي كان من أبرز التلاميذ وأقرهم إلى الشيخ الطيب المهاجي¹⁸.

ب- مؤلفاته

لقد خلف الشيخ الطيب المهاجي مجموعة من المؤلفات، كان أغلبها له صلة بالعلوم النقلية، نظرا لطبيعة التركيز على تعليم اللغة العربية، والتي تمثل أحد رموز الهوية الوطنية للشعب الجزائري في ظل الإستعمار الفرنسي. وهذه قائمة عناوين إنتاجه المعرفي:

- أنفس الذخائر وأطيب المآثر في أهم ما اتفق لي في الماضي والحاضر.
- تزويد الحاج بالمناسك المعوزة لمذهب إمام الأئمة مالك.
- مبادئ الصرف.
- علامات الإعراب.
- علم البيان.
- علم المنطق.

3. التعريف بكتاب "أنفس الذخائر وأطيب المآثر"

تجدر الإشارة قبل التطرق إلى التعريف بكتاب "أنفس الذخائر وأطيب المآثر" للشيخ الطيب المهاجي وهو موضوع هذه الدراسة، إلى التنويه أن عملية تدوين وتسجيل الرحالة لمشاهداته عبر مسالك وطرق الحج ليس بالأمر الهين، بل أنه سفر طويل وشاق، وتمثل عملية التدوين عملا في غاية الأهمية، إذ يعول عليه الباحث في مختلف التخصصات للاستفادة منه في سد الفراغ الذي يعترض البحث العلمي. وما رحلة

الشيخ الطيب المهاجي نحو البقاع المقدسة وترك بصمات عالم جليل فيها سوى أنموذجا عن جملة العلماء الجزائريين الذين رحلوا بإتجاه مصر والحجاز والشام وتركوا أثرا حميدا يذكره جيل بعد جيل.

في الحقيقة كفانا الشيخ الطيب المهاجي عناءً بتقديم تعريف عام للكتاب وهذا نصه: "والآن أشرع في المقصود بالذات فأقول سيمت هذا التقييد الموجز والعمل المنجز "أنفس الذخائر وأطيب المآثر في أهم ما اتفق لي في الماضي والحاضر". في قوله: "وقد رتبته على مقدمة، وثلاثة مقاصد وخاتمة وتذييل، وربما تعرضت أثناء الكلام على هذه المواضيع إلى ما يرتبط بها بأي وجه من وجوه الارتباط وبأية مناسبة من المناسبات ولو غير قوية، حرصا على الفائدة وقد قيل لا إطناب مع الفائدة، والله المسؤول أن يجعل هذا التقييد المفيد والعمل المرضي السديد من السعي المقبول، لأنه من باب التحدث بالنعمة، وغير خاف أن التحدث بالنعمة شكر الله عليه، وطلب للمزيد منها والشكر معلوم أنه من أجل الأعمال المبررة وأرجاها قبولاً وأقرها إلى رضي الله تعالى.

على أن تقييدي هذا لا يخلو من حل مشكلة أو إفادة حكم مسألة أو جلب حكاية أدبية أو سرد حادثة تاريخية، كما سيقف على ذلك القارئ إن شاء الله. والأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى. ثم إن جعلت موضوع المقدمة التراجم والفهارس والأثبت والبرامج، وموضوع المقصد الأول من الثلاثة ابتداءً أمري نشأة وولادة، وما يتبع ذلك من كفالة ورعاية وتربية.

وموضوع المقصد الثاني تعليمي الحروف الهجائية وقراءتي القرآن الكريم حفظاً وإتقاناً وتجويداً ورواية، ثم اتجاهي لطلب العلم والسعي في تحصيله. ويحتوي هذا المقصد الثاني على ذكر المشايخ الذين أخذت عنهم مشافهة أو بالإجازة مباشرة أو بواسطة الكتابة نثراً ونظماً.

وموضوع المقصد الثالث جلوسي للتدريس وتعليمي للفنون التي تلقيتها أو أجزيت لي بها مع ما كان يعرض من الفتاوى والأجوبة والردود مشافهة أو على ألسنة الجرائد إلى الوقت الحاضر سنة تسع وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية، وستين وتسعمائة وألف مسيحية.

وأما الخاتمة فهي في التلخيص إلى ذكر حوادث مؤلمة وقعت بالقطر الجزائري في التاريخ المذكور أو قبله بيسير نابني من ويلاتها الحظ الأوفر والنصيب الأكثر والله المستعان". وذكر هذه الرحلة الحجازية ضمن المقصد الثاني تحت عنوان: الرحلة لأداء فريضة الحج.

وعليه، سأتولى دراسة جوانب تخص الرحلة الحجة التي دونها الشيخ ضمن كتابه هذا، وهذه الرحلة كانت بحرية حيث جاب فيها هذا الشيخ العالم السواحل الجنوبية والشرقية للبحر الأبيض المتوسط وصولاً إلى ميناء جدة، وقد اهتم بتدوين رحلته فوصف لنا تفاصيلها منذ أن حصل على رخصة السفر من الحكومة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر آنذاك إلى ركوبه المركب المخصص لنقل الحجاج من ميناء دار البيضاء بالمغرب إلى وهران فالجزائر، فعنابة وصولاً إلى جدة. فقد تضمنت الرحلة معلومات تاريخية هامة تعكس طبيعة التواصل

الديني والثقافي الذي جمع بلاد المشرق بالمغرب عبر المسلك البحري المتوسطي. وهذا ما سنفصل له عند دراسة وتحليل رحلة العالم والشيخ الطيب المهاجي الجزائري.

3. 1 عرض لعناصر الرحلة

اهتم الشيخ الطيب المهاجي في تقديم صورة عن مواكب الحج البحرية وطرق تنظيمها في زمن الاحتلال الفرنسي للجزائر؛ فقد تناول حين عزم لأداء فريضة الحج إلى ذكر العراقيل التي خطط لها الاستعمار الفرنسي في التضييق على الشعب الجزائري من ممارسة شعائره الدينية كالحصول على الرخصة وتحديد المدة الزمنية بين الذهاب والإياب للحرمين الشريفين، وبث العيون لمراقبة الحجاج عند حلولهم في البقاع المقدسة في قوله: "كنت سنة خمسين وثلاثمائة وألف (1350هـ/1932م) عولت على السفر لأداء فريضة الحج، فطلبت رخصة السفر، التي لا تنال ولا يمكن الحصول عليها إلا بعسر بسبب ما تطلبه الحكومة من المفروضات التي فرضها القانون الفرنسي على المسافر، والتي هي مجرد عراقيل يضعها الاستعمار في طريق اجتماع المسلم بأخيه في صعيد واحد، في قوله: "وبعد صعوبات حصلت على رخصة لا تتعدى مدتها أربعين يوما ذهابا وإيابا في مركب مخصوص مع تعين موضع الركوب والتزول ككونه مثلا من وهران إلى جدة ومن جدة إلى وهران، وزيادة على هذه التضييقات تصحب الحاج عيون من طرف الحكومة تراقب حركاته وسكناته، وتحصي عليه عدد أنفاسه حتى يعود إلى المكان الذي ركب منه عند خروجه من منزله"¹⁹.

وحاول العالم المهاجي كشف المقاصد والنوايا السيئة للاستعمار الفرنسي اتجاه أبناء الجزائر عكس ما تظهره موهمة ومظلمة للرأي العام العالمي عصرئذ ضمن صحافتها، أنها تعين المسلمين الجزائريين على إقامة شعائر دينهم، وتجنح دائما بأنها تسهر على راحة الحجاج، وتحيي لهم المراكب المحتوية على جميع المرافق. لقد فضح صاحب الرحلة تلك الأساليب بقوله: "هذه هي التسهيلات التي تمنحها الحكومة الفرنسية حجاج الجزائر، ثم تنشر على ألسنة الجرائد وبواسطة الخطب المذاعة التي يخطبها أقوام اصطنعتهم الحكومة لنفسها أنها تعين المسلمين الجزائريين على إقامة شعائر دينهم، وتبجح على راحة الحجاج، وتحيي لهم المراكب المحتوية على جميع المرافق، وهكذا تلبس الحكومة الفرنسية من لا يعرف مقاصد ونوايا السيئة تجاه أبناء الجزائر، فلقد رأيت بعين رأسي المركب البحري الذي أقل الحجاج إلى جدة، وقد أفرغ من حمولته وهي كميات من أطنان الحنطة، ثم غسل بماء البحر، وبقيت حبوب الحنطة في شقوق المركب، كما بقي في بعض زوايا أثر أرواث البقر والأغنام، وباقي الدواب التي كان المركب ينقلها من بلد إلى بلد، ولا تسأل عن رداءة الطعام الذي يقدم للركاب والذي أخذ منهم ثمته مقدما قبل الركوب، كاللحم المثلج المتغير الرائحة". وإن الحقيقة التاريخية تشهد لتلك الإجراءات الرسمية للحكومة الفرنسية، عند إصدارها قرار 10 ديسمبر 1894م للإشراف على الحج في

الجزائر، بإسم الحاكم العام الفرنسي للجزائر جول كامبون²⁰ (Jules Cambon) بعد وفاة ألفي حاج جزائري من أصل سبعة آلاف بسبب عدوى الكوليرا. وهذا القرار حدد شروط الحصول على جواز السفر إلى الحج، والتي اتسمت بالتضييق إلى حد المنع بحجة ظهور الأوبئة والأمراض في المشرق.

3. 2 موكب الحج البحري المغربي

لقد أحصى الشيخ الطيب المهاجي عدد الحجاج ومسافة مسار المركب البحري وزمنه منذ انطلاقه إلى حين رسوه في ميناء جدة في قوله: "ثم بعد ما تسلمت الرخصة على ما بها من تحديد وتعيين انتظرت قدوم المركب المخصص لنقل الحجاج من ميناء الدار البيضاء وميناء وهران والجزائر وعنابة وصولا إلى ميناء جدة". وأضاف في قوله: "وفي السابع من ذي القعدة رسا بوهراة فحمل الذين كانوا في انتظاره من الحجاج وواصل سيره ليلا، ومن الغد أصبح بميناء الجزائر ثم استأنف إلى عنابة فحمل من كان بها ينتظر فكان على ظهر المركب نحو الألف والأربع مائة نسمة من أبحر من عنابة إلى جدة فقطع المسافة البحرية في ثلاثة عشر يوما بلياليها.

3. 3 تحويل فضاء المركبة البحرية إلى فضاء لتلقين الدروس الشرعية

كان الشيخ الطيب المهاجي يلقي الدروس والمواظع، وهو على ظهر السفينة، وبخاصة تلك التي لها علاقة بتأدية مناسك الحج، حرصا على الأداء السليم للفريضة في قوله: "وكان بعض أعيان الحجاج إلتمس مني أن أقرأ مناسك الحج لمن هو راغب في أن يكون على علم منها ليؤدي على الوجه الأكمل ما هو مطلوب به شرعا، فلم تسعني مخالفتي، وأجبت لما سألت، وفعلا صرت أقرأ درسين بالغدو والعشي من كل يوم إلى أن نزلنا بجدة، وكان أكثر أهل المركب يحضرون الدرس، وهم ما بين مراكشيين وجزائريين. وفيهم جماعة من العلماء ما كان أحد منهم يلقي سؤالا ولا يدي ملاحظته فضلا عن أن يعترض أو يناقش وهذه المجاملة من كرم شيمهم وكمال أدبيهم وسلامة صدورهم نعم كانوا من عرض له منهم أثناء الدرس ما يستحق المراجعة أخره إلى فراغ الدرس ثم قابلني في محلي الخاص، وراجعني فيما بدا له.."²¹.

3. 4 منحه الإجازات العلمية لطلابها من العلماء

ولقد اهتم الشيخ الطيب المهاجي في رصد الإجازات التي منحها لطلبة العلم في قوله: "وقد التمس مني عالمان من ناحية طنجة أن أجهزهما بمحدث فأجزتهما به مما أجازني به أشياخي رحمهم الله . وكنت أخذت اسمي

هذين العالمين مع أسماء غيرهم ممن اجتمعت به في سفرتي هذه وقيدت سائر ما دار بينهم بحضوري أو شاركتهم فيه من أبحاث علمية، وتساؤلات وأجوبة فقهية وغير فقهية²².

3. 5 دخوله مكة والمدينة واللقاء بالعلماء

إن أداء العلماء لفريضة الحج يمكنهم من الالتقاء بغيرهم ممن يحضر موسم الحج، حيث تلتقي أمة الإسلام على اختلاف شعوبهم وأعراقهم، وأصبحت رحاب الحرمين في مكة المكرمة والمدينة المنورة ملتقى لصفوة علماء الأمة ومفكرها على مدى التاريخ الإسلامي، حيث اعتبر الحج إلى مكة فرصة مواتية للقاء العلماء والأدباء والمفكرين من شتى بقاع العالم الإسلامي، يتم من خلاله التعارف والاطلاع على المؤلفات، وأخذ الإجازات العلمية فيما بينهم، ويحققون من خلالها أكثر من فائدة. كما يأتي كل منهم بزاده العلمي، وقدرته الثقافية، وتجاربه الحضارية وتطورات مجتمعه وتغيراته فيكون لقاءهم في مؤتمرهم السنوي مباركا ومفيدا، لأنه يقدم عملية إعلامية واسعة النطاق تبلغ المعلومة من كل بلد إسلامي إلى كل بلد إسلامي.

وقد أولى الشيخ اهتماما بذكر علماء الحرمين وما جرى بينهما من مناقشات علمية مسجلا، ومدونا لأهم القضايا التي كانت موضوع انشغالات المسلمين وبخاصة تلك التي أدرجت ضمن مسائل البدع.

أ- في مكة

وقد أقام الشيخ الطيب المهاجي بمكة تسعة عشر يوما معدودا منها يوم عرفة وأيام منى، في قوله: "اجتمعت أثناء تلك المدة داخل المسجد الحرام وخارجه بعلماء مكيين وأفاقين كنت قيدت أسماءهم، وما دار من حديث بيبي وبينهم، ولكن ضاع مني ذلك في جملة الكنب والأمتعة ... بالجزائر²³.

ومن العلماء الذين قابلهم الشيخ بمكة واستفاد من علمهم ومعارفهم، الشيخ العلامة أبو السمح إمام المسجد الحرام، حيث قال: "ومن الذين اجتمعت بهم بمكة الشيخ أبو السمح إمام المسجد الحرام فتحدثنا، وكان موضوع حديثنا في حكم صلاة ركعتي الطواف بعد طلوع الفجر وبعد صلاة العصر، فذكرت له أن مذهب المالكية فمن طاف بعد الصبح أو العصر أنه يؤخر ركعتي الطواف إلى ما بعد صلاة المغرب، وإلى ارتفاع الشمس قيد رمح وهو ابتداء حل النافلة، فقال الشيخ أبو السمح المسألة خلافية".

والتقى الشيخ الطيب المهاجي أيضا بمكة الشيخ أحمد الشريف السنوسي الخطابي²⁴، فكان يتردد عليه في زاويته بأبي قبيس، وقد نقل مشهد مجلسه العلمي في قوله: "كنت أيام إقامتي بمكة أتردد إلى هذا العالم الرباني في زاويته بأبي قبيس وأحضر مجالسه الغاصة بالوفود التي تتوارد صباح مساء للسماع منه والأخذ عنه والتبرك به أو لطلب تلقين أرواد الطرق المنسوبة لأكابر المتصوفة، وكان صاحب إسعاف وعطاء لا يمنع سائلا ولا ينجب

آملا". وقد سمع الشيخ منه في مجلس واحد ثلاثة عشر حديثا من المسلسلات. وهذه إشارة إلى الأهمية والمترلة التي حظي بها هذا العلامة في الوسط المعرفي بمكة الشريفة.

ب- في المدينة المنورة

وبالمدينة المنورة قابل الشيخ الطيب المهاجي جماعة من العلماء، وحضر دروس بعضهم خاصة درس الشيخ العلامة خليل التكروري²⁵، حيث ذكر أن: "دخلناها ليلة الثالث والعشرين من الشهر المذكور، وكانت ليلة الجمعة، ومن الغد صلينا الجمعة بالمسجد النبوي، ثم صلينا الجمعة التي بعدها وخرجنا من المدينة فاتح الحرم، فكانت إقامتنا بها ثمانية أيام قابلت أثناء هذه المدة القصيرة جماعة من علماء المدينة وحضرت دروس بعضهم، وواظبت على حضور درس العلامة الزاهد الورع الشيخ خليل التكروري". ومن علماء المدينة المنورة الذين قابلهم أيضا أبو العباس العلامة الشيخ أحمد الأمين بن عزوز²⁶، زاره الشيخ بمترله وتباحثا معا في مسائل متنوعة. ودامت إقامته بالحرمين الشريفين إحدى وثلاثين يوما وإذا أضفنا أيام الرحلة ذهابا وإيابا تصير مدة الرحلة حوالي شهرين من الزمن، أفاد منها الشيخ دروسا وعبرا وفوائد جمّة.

3. 6 حضوره لحلقات الدرس وحصوله على الإجازات

لقد أحصى الشيخ موجزيه عند حلوله بالحرمين الشريفين، حيث ذكر اجازة الشيخ أحمد الشريف السنوسي له في قوله: "وقد أجازني مشافهة إجازة عامة وأذن لي²⁸ في تلقين أورايد الطريقة السنوسية المنسوبة لمؤسسها جد المترجم له العلامة الشهير والمربي الكبير سيدي محمد بن علي السنوسي الخطابي ثم الجزائري دفين جغوب. ومن المجيزين لي من علماء المدينة، أبو العباس القدوة الإمام العلامة الشيخ أحمد الأمين بن عزوز زرتة. بمترله وتباحثنا في مسائل متنوعة هامة، ثم أجازني مشافهة إجازة عامة، وحيث كنت على جناح سفر وحال عجلة أوصيت بعض أصدقائي وهو الفاضل السيد عبد القادر ابن المفتي الجزائري²⁹ المجاور بالمدينة المنورة وأنبته أن يتسلم لي من الشيخ الأمين إجازة بخط يده أتبرك بها كما وعدني بذلك وقت توديعي له، وبعد مدة كتب إلى الأخ المذكور بما مضمونه: "يسلم عليكم فضيلة الشيخ سيدي أحمد الأمين، ويقول لسيادتكم يكفيك عن الكتابة ما أخذته عني لأن الإجازة مشافهة أقوى منها كتابة لأن الأولى تعد عند أرباب هذا الشأن من السماع المعبر دون الثانية. ثم يقول وإن

رغبت في الكتابة فأني مستعد لإجابة رغبتكم". انتهى. ولكني لم أراجعها فيما بعد لاكتفائي بالإجازة الشفاهية، ونعما هي وعندما أجازني قدم إلي من مؤلفاته كهدية منظومة في أسماء الله الحسنى، وأسماء النبي صلى الله عليه وسلم، وأهل بدر يتوسل بها إلى الله تعالى أن ينصر المسلمين في الحرب العالمية الأولى عندما كانت الدولة التركية بجانب الألمان تقاتل الحلفاء، وقد عنها في آخر المنظومة بقوله:

وَكُلُّ ذَوِي الْإِيْمَانِ كُنْ لِجَمِيعِهِمْ وَلِيًّا غِيَاثًا قَامِعًا كُلَّ مُعْتَدٍ³⁰

ومثلما أجزى الشيخ الطيب المهاجي من قبل الشيوخ الذين جلس إليهم، فقد أجاز هو بدوره عالم هندي قابله بذات المكان وهذا قاله: "ذكر هذا العالم الهندي أنه قرأ عن الشيخ أبي شعيب الدكالي أيام كان بمكة يدرس الحديث كما ذكرنا سابقا، وقال أنه لم يتفق له أن طلب منه الإجازة ولما قلت له إني حضرت على الشيخ أبي شعيب وأنه أجازني طلب مني الإجازة فأجزته بما أجازني به الشيخ الدكالي وقد قدمنا نص إجازته لنا ثم افترقنا على ما اجتمعنا عليه من التحابب في الله"³¹.

4. الخاتمة

وخلاصة القول، أن كتاب "أنفس الذخائر وأطيب المآثر" للعالم الشيخ الطيب المهاجي يعتبر مصدرا وثروة معلومات لا غنى عنها، حيث تضمنت قضايا متعددة تخدم حركة الفكر الإسلامي عامة وتاريخ الجزائر الحديث في مرحلة الاستعمار الفرنسي خاصة، إذ كشف هذا المؤلف جوانب متنوعة من التاريخ الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي إلى جانب تاريخ علاقات الشعوب العربية والإسلامية من خلال التواصل العلمي في ظل حقبة تاريخية مهمة من تاريخ الجزائر المحتل من قبل الاستعمار الفرنسي كتب بقلم يحسب للكتابة المحلية بمنهجية فريدة قل من اعتمدها ممن عاصروه في حركة التدوين، حيث جمع بين المذكرة اليومية الجامعة للسير والتراجم ونصوص الإجازات العلمية وسرد للأخبار التاريخية بمقاصد محددة.

5. قائمة الإحالات:

¹ - الشيخ الطيب المهاجي الجزائري: "أنفس الذخائر وأطيب المآثر في أهم ما اتفق لي في الماضي والحاضر"، ضمن مجموع رحلات لعدة مؤلفين، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 27.

2- المرجع نفسه، ص 43-47.

3- هو عبد السلام بن صالح الغريسي، شيخ القراء والمرجع في علوم الأداء رسمًا وتجويدًا ورواية، خصوصًا الروايات السبعة المنسوبة للأئمة السبعة: نافع وابن كثير وابن عامر وأبي عمرو وحزمة وعاصم والكيساني. وكان أحد الأعلام الإثبات في علم القراءات، يؤمّه الطلبة المتعطّشون لعلم القراءات؛ ليأخذوا عنه هذا العلم الذي انفرد به في الجزائر، وقد تخرّج عليه الكثير؛ منهم: الشيخ أحمد الشارف بن طكوك، رئيس الزوايا السنوسية بمستغانم، والشيخ المختار العشعاشي، والشيخ الحاج بن عبّ المشرفي العسكري، وخلق لا يُعدّ. يراجع أنفس الذخائر وأطيب المآثر، ص 49-50.

4- يراجع ترجمته كما أوردها الشيخ الطيب المهاجي: المرجع السابق، ص 57-59.

5- المرجع نفسه، ص 57.

6- يراجع تفاصيل تراجم هؤلاء العلماء ضمن ما ترجم لهم الشيخ الطيب المهاجي في كتابه: الذخائر، صص 27-60-66-70-74-77.

7- ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر-بيروت- 1421هـ/2000م، مقدمة، ص745.

8- أنفس الذخائر، ص88.

9- سورة آل عمران، آية 97.

10- سورة الحج، آية 27-28.

11- إبراهيم القادري بوتشيش، رحلة علماء الأندلس لمكة المكرمة ونتائجها العلمية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، بحث مقدم إلى ندوة مكة عاصمة الثقافة الإسلامية مكة المكرمة.

12- محمد الحبيب هيلة: أثر الحجّ في الحياة الثقافية والاجتماعية عبر العصور، أعمال ندوة الحج الكبرى عام 1423/هـ/2003م المنعقدة بمكة المكرمة في 27 صفحة، طبع ضمن أعمال المؤتمر الصادرة عن وزارة الحج بالملكة العربية السعودية.

13- من جملة الرحالة الذين دونوا الرحلات الحجّية المغربية: أبو العباس أحمد المقرئ التلمساني، أبو عبد الله محمد بن علي العياشي، ابن الرشيد الفهري والتيجيبي والعبدي والدرعي بن حمد بن ناصر ومحمد بن عبد السلام السبتي وغيرهم...

14- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ج 2، ص382

15 - Archives ; A .O.M 9 H 10261/1 Gouverneur Général au ministère des Affaires Étrangères .

16- أبو العباس العياشي: ماء الموائد، الطبعة الحجرية الفاسية، 1898، ج 1، ص17. أبو العباس أحمد بن ناصر: الرحلة الناصرية، الطبعة الحجرية الفاسية، ج 1، ص111. أحمد السبيعي: رحلة حجازية، مخطوط بالخزانة العامة

بالرباط، رقم 2908. أبو العباس الهلالي السجل ماسي: رحلة الهلالي إلى لحج بيت الله الحرام، مخطوط خاص.... وقد قدمت لهذا المخطوط ضمن مجلة الدراسات التاريخية. أبو راس الناصري: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1، تحقيق محمد غالم، منشورات crasc 2004. أبو راس الناصري: فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق، عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990. الحسين بن محمد الورثاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، دار الكتاب العربي، بيروت، 1974.

17- كانت له رحلة ثانية إلى الحجاز سنة 1968م، أي سنة قبل وفاته رحمه الله، وقد كان برفقته زوجته وولده الأكبر محمد الشريف، وقد التقى في هذه المرة بفضيلة الشيخ حسن إبراهيم الشاعر شيخ القراء وعضو رابطة العلماء بالمدينة المنورة، فأهداه رسالة بعنوان: تحفة الإخوان في بيان أحكام تجويد القرآن.

18- الشيخ الطيب المهاجي: المرجع السابق، ص27.

19- المصدر نفسه، ص21-25.

20- *Les institutions de l'Algérie durant la période Coloniale*, CNRS-OPU, Alger, 1987, P310.

الفرنسي عن قبائلي هواري: ظاهرة الحج غير النظامي في الجزائر في الفترة الاستعمارية (1830-1954 م) الدارة، العدد الثاني، شعبان 1440 هـ/إبريل 2019 م، السنة الخامسة والأربعون، ص 67-98.

21- المرجع نفسه، ص 79.

22- نفسه، ص 81-83.

23- نفسه، ص 85.

24- توفي بالمدينة المنورة سنة 1315هـ/1933م ودفن بالبقيع، ينظر ترجمته في أنفس الذخائر، ص74.

25- أنفس الذخائر، ص77.

26- قدم الشيخ أحمد بن عزوز إلى الشيخ الطيب المهاجي هدية من مؤلفاته وهي عبارة عن منظومة في أسماء الله الحسنى، وأسماء النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بدر يتوسل بها إلى الله تعالى أن ينصر المسلمين في الحرب العالمية الأولى عندما كانت الدولة التركية بجانب الألمان تقاتل الحلفاء وقد عناها في البيت الأخير بقوله في المصدر نفسه، ص78.

وكل ذوي الإيمان كن لجميعهم ❖ وليا غياثا قامعا كل معتد